التجديد الشعري في المغرب العربي

ظهرت القصيدة الرومانسية في المغرب العربي متأثرة بنظيرتها في المشرق العربي نظرا للقواسم المشتركة بين الشعوب العربية سياسيا واجتماعيا وأدبيا وعلميا، وكذا اطلاع المغاربة على الأدب الرومانسي الغربي، ناهيك عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثّقافية المزرية والمشتركة بين بلدان هذه المنطقة العربي. حيث ظهر شعراء برزوا في هذا المجال واسهموا بتجاربهم الشعرية في تجديد القصيدة الشعرية المغاربية ومنهم على وجه الخصوص أبو القاسم الشابي من تونس وحمود رمضان من الجزائر.

الجزائر:

يرى عبد الله الركيبي أن الشعر الوجدان الجزائري ظهر قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، ويشير في ذلك إلى نصوص شعرية تحمل في طياتها بعضا من ملامح الرومانسية منها : قصيدة دمعة على الملة"، و"زفرات العشي "و"دمعة كئيب."

ومن أسباب اختيارهم لهذا الاتجاه :

ـ الأوضاع الاجتماعية القاسية التي مر بها الجزائريون في ظل سياسة استعمارية ظالمة مرت عليهم ضيقت على الناس في معاشهم أنفاسهم، وأحصت حركاهتم، فتسلل القنوط إلى النفوس، وانتشر الجهل والحرمان والفقر والذلة والمهانة والانكسار، يترقبون فجرا جديدا يزيح هذا الظلام القاتم. وأول خطوة خطتها الحركة الشعرية الإصلاحية بتوجيه من جمعية العلماء المسلمين.اما الخطوة الثانية قادها جيل من الأدباء الشباب يريدون التغيير وفق نهج جديد تتجدد معه الآمال وتتحسن الأوضاع.

ـ الانفتاح على منابع الأدب الرومانسي في المشرق العربي ممثلا في أدباء المهجر وجماعة أبولو والانفتاح على الأدب الغربي ممثلا في الأدب الفرنسي الذي كان أبرز الآداب الممثلة لمعالم الرومانسية.

تقوم قصائد الرومانسيين على النّظرة التشاؤمية والحزن والقلق، وتقديس العاطفة والبحث عن الحرية، وأنسنة الطبيعة واتخاذها ملاذا للتّعبير عن آلامهم ومعاناتهم بصور شعرية تطفو بالخيال ليتجاوزوا بذلك الغاية الإبلاغية التي كانت تقوم عليها القصيدة الإحيائية إلى غاية جمالية وفنية راقية.

1 ـ مبارك جلواح:

شاعر فاق أقرانه في الشاعرية وحسن السبك ورقة الشعور وروعة الصورة وعدم التكلف وعدم طغيان المسحة الدينية على الصورة الشعرية، ثم المسحة الرومانسية التي لازمته طفلا وشابا مناضلا وشاعرا عاشقا وأبا، فهو حقيق بريادة الشعر الجزائري.

في شعر مبارك جلواح بروز واضح لمسحة الألم وهو شأن الرومانسيين حتى لكأنهم يرحبون بالألم ويمجدونه لأنه معراجهم إلى سماء العبقرية ألم يقل موسيه: "لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم"؟ يقول مبارك جلواح:

اجرح القلب واسق شعرك منه فدم القلب خمرة الأقـــــلام
وإذا أنت لم تعذب ولـــــــــم تغمس قلما في قـرارة الآلام
فقوافيك زخرف وبريـــــــق كعظام في مدفن من رخـــام

ونفس الشيء نلمسه في قوله:

كم بات حولك من فؤاد دامـــي يشكو إليك كوامـــن الآلام
يا راقص الأمواج في حضن الصبا والليل ساج والورى بمـــنام
لم يبق لي يا سين في ذي الكون من خذن يصانعني ولو بكـــلام
صد الرفاق جميعهم لمـــــا رأوا ألا بقاء لثروتي وحطامـــي
وتباعدوا خوفا بأن يسخوا بمـــا قد يدهقون به كؤوس مدامي

يناجي الشاعر في قصيدته نهر السّين، ويشكو له آلامه ومعاناته بسبب الغربة والوحدة التي يعيشها، كما تظهر نظرته التشاؤمية من خلال عبارات الحزن والألم، التي تسيطر على معظم أبيات القصيدة منها :دامي، الآلام، الصّبا، حطامي.

تغنى الشاعر بوطنه الواقع تحت قبضة الاستعمار ونير العبودية، ويتمنى خلاصه منها بطرد المستعمر وطلوع شمس الحرية حيث يعيش الناس سواء في كنف العدل والأخوة والمساواة، تشرق فيه الشمس على الجميع وينعم الكل بقمحه وورده وفجره الوردي:

جزائر الغد ما أبهاك في ناظـــري من صورة تستبي عقل الفتـــى الأرب
كم تسفرين عما في مخيلتـــــي سفور شمس الضحى من برقع السحب
ترى تسالمني الأيام يا أملـــــي حتى أراك كما أهواك عن كثـــب؟
أنت الحياة ومالي في الوجود سوى سطوع نجمك من سؤل ومـــن أرب
فالله يحييك في عز وفي شـــرف ومن يحبك في يمن وفي طـــرب

2 ـ حمود رمضان:

هو من الشعراء الذين دعو إلى الاتصال بالغربقصد تحرير الأدب من قيود الماضي وتبنى دعوة تجديدية في الشعر العربي تقوم على التحرر من الوزن الوزن والقافية ولم يفرق بين الشكل والمضمون ودعل الى الاهتمام بالصدق الفني. يقول معبرا عن آلام امته وما يعانيه من آلام ومآسي واستعمار:

رنة تخرج الحشا و تذيـــب و بكاء تطير من القلـــوب
في بالدي ترى الهوان جبـــالا فرؤوس الصغار منه تشيـــب
كل فرد يشكو هموما ثقـــالا لست أدري متى الحياة تطيـب؟
لست أدري متى نكون رجـــالا لست أدري متى الشقاء يغـيب؟
يا إلهي! منك الشفاء لشعبـــي! ربي رحماك أنت أنت الطبـيب

ويقول حينما حاول التخلص من الرتابة الموسيقية

أنت يا قلبي فريد في الألم و الأحـــزان
ونصيبك في الدنيا الخيبة و الحرمان
أنت يا قلبي تشكوا هموما كبارا، و غير كبـــار
أنت يا قلبي مكلوم، و دمك الطاهر يعبث به الدهر الجبار
إرفع صوتك للسماء مرة بعد مرة و قل اللهم أن الحياة المرة
أعني اللهم على إجتراعـــها
وأمددني بقوة فاني غير قادر على إحتمالهـــا

اللهم أنها مرة ثقيلة فليس فيها طريقــا

تونس:

ـ أبو القاسم الشابي:

شاعر فذ وأديب بارع، والمبدع الفنان الذي اختطفته رياح المنون في سن مبكرة من حياته، كان نابغة في تاريخ الأدب العربي، وعضوا بارزا في جماعة أبولو، تمسك بوطنه ورغب في تحريره، يقول في قصيدة يا بن أمي:

خُلِـقْتَ طَلِيقًا كَطَيْفِ النَّسِيـــــــمِ وَحُـرّا كَـــنُورِ الضُّحَى فِـــي سَماهْ
تُـغـرِّدُ كَـالطَّـيْـرِ أَنَّـى انْـــدَفَعْـت وَتَشْـــدُو كَـمَـا شَاءَ وَحْـيُ الإِلَـهْ
وَتَــمرَحُ بَيْـــــنَ وُرُودِ الصَّبَاح وَتَـنـعَمُ بِـالـنـورِ أَنَّـــى تَـــرَاهْ
وَتَـمْشِي، كَما شِئْتَ، بَيْـنَ الْمُـرُوج وَتَقْـــطِفُ وَرْدَ الـــرُّبَـــا فِي رباه
كذلك صاغك الله يا ابن الوجـــود وألقتك في الكـون هذي الحيـــــاهْ
فمـــالك ترضـى بذلّ القيـــــود وتُحنى لمن كبّلوك الجـبـــــاهْ

جاءت جل قصائد أبي القاسم الشابي تقريبا ـ تفوح منها رائحة الحزن والكآبة والألم، فهو شاعر الحزن بلا منازع فمعظم حياته كانت« مليئة بالشقاء والألم، عامرة بالأحزان والأتراح، طافحة بالحرمان والتعاسة مغمورة بالكآبة والأسى.

لا يكاد القارئ لديوان الشابي أن يغفل عن ذلك النغم الحزين الذي يئن في غالب قصائده، فالكآبة هي الروح المسيطرة على ذلك الإنتاج الشعري. ففي قصيدته (يا شعر، نلمس فهمه للشعر على أنه (حيلة الكئيب):

يا شعر أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر أنت صدى نحيب القلب و الصب الغريب
يا شعر أنت مدامع علقت بأهداب الحياة
يا شعر أنت دم ، تفجر من كلوم الكائنات

و بهذه القصيدة نلخص كثيرا من رؤى الشابي للحياة و الشعر، فإذا ما كان الشعر وسيلة البكاء و التنفيس، اتضح أن كل ما سيخرج من هذا التصور لن يعدو أن يكون من ضروب الحزن و الكآبة ويقول في قصيدة (مأتم القلب):

« فأنادي يافؤادي
مات من تهوى وهذا اللّحدُ قد ضمّ الحبيبْ
فابكِ ياقلبُ ! بما فيكَ من الحُبِّ الكئيبْ
إبكِ ياقلبُ ! وحيدْ »

التزم الشابي في قصائده بقضايا وطنه وكتب أوع القصائد في الثورة وللثورة، ثورته كانت متمردة جانحة تأججت بداخله واندلع في صدره الشعور القوي بالرغبة في الاتحاد وضرورة الغضب، والثورة للتخلص من ظلم الطغاة. وعاش ينثر بذور الثورة ويحلم بالصباح الجدي.

إذا الشّعْبُ يَوْمًا أرَادَ الْحَيَـاةَ فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ الْقَــدَر

وَلا بُـدَّ لِلَّيـْلِ أنْ يَنْجَلِـــــــي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أنْ يَـنْكَسِـــــر
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَـاةِ تَبَخَّـرَ في جَوِّهَـا وَانْدَثَـــــر
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْـهُ الْحَيَاةُ مِنْ صَفْعَـةِ العَـدَم المُنْتَصِـر
كَذلِكَ قَالَـتْ لِـيَ الكَائِنَـــاتُ وَحَدّثَنـي رُوحُـهَا المُسْتَـــتِر

حرص الشابي هنا على التحرر من المستعمر بالنضال والجهاد والكفاح والتطلع على غد أفضل يعسش فيه الشعب مستقلا .

ومن القضايا التي التزم فيها بوطنه ومحاربا الجهل والتخلف نذكر مثلا :قصيدة" النّبي المجهول" وهذا مقطع منها :

أيّها الشَّعبْ ليْتَني كنْت حطّابَـا فأهوي على الجذوع بِفأســـي!
ليتني كنْت كالسّيول، إذا سالت تهدّ القبورَ :رمْسـا برمـــــس!
ليْتني كنت كالرّياح، فأطـــوي كلّ ما يخنق الزهور بِنَحْـسي!
ليْتِلي قوة العواصف يا شعـبي فألقي إِلَيْكَ ثَورَةَ نفْســـــــِي!

استهل الشاعر قصيدته بمخاطبة شعبه، متمنيا أن يصبح حطابا ليقطع الأشجار من جذورها، لتختفي وراء هذه الأمنية دلالات أعمق تعكس لنا رغبة الشاعر في القضاء على الظلمات والجهل والتخلف الذي يحيا في كنفه شعبه واستبداله بنور التقدم والرقي.

خصائص المدرسة التجديدية في المغرب:

ـ الاهتمام بالمرأة والحب، وإضفاء الطابع الروحي عليه.
ـ اتصال شعرهم بالحنين إلى موطن الذكريات، مما جعله يتميز بكثرة الشكوى والتشاؤم.حيث عادوا إلى شعر الريف.
ـ اقتراب بعض الشعراء من الشعر الصوفي.
ـ التوسع في نقل الألفاظ من مجال استعمالها القريب المألوف إلى مجالات أخرى عن طريق الانزياح.
ـ النزوع إلى التشخيص بنقل الأمر المعنوي من مجاله التجريدي إلى مجال آخر حسي. كما اعتمدوا على إحالة اللغة الشعرية إلى تعبير بالصور.
ـ ظهور التعابير الرمزية خاصة ما يتصل منها بالطبيعة.
ـ النزعة الإنسانية.
ـ النظرة التفاؤلية.
الوحدة الموضوعية.
ـ النزعة الفردية.
ـ الصدق الفني.
ـ التجديد الموسيقي.